بين العقلانية العلمية والعقلانية الفلسفية

Between scientific rationality and philosophical rationality

أ.د. بلعسل محمّد [1]، أ.د. رحاب مختار [2]

belasal mohammed[1] , rahab, mokhtar[2]

[1] جامعة محمد بوضياف – المسيلة mohammed.belasal@univ-msila.dz

[2]جامعة محمد بوضياف – المسيلة mokhtar.rahab@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2024/06/07 تاريخ القبول: 2024/06/24 تاريخ النشر: 2024/07/01

ملخص:

بعد أن تبنت العلوم بمختلف فروعها تطبيق المناهج العلمية، ازدادت دقتها ويقينها، لا سيما بعد تأثير العقلانية الرياضية الديكارتية على هذه المناهج. هذا لا يقلل من جهود العقلانيين السابقين، بل يعني أن ديكارت أضفى على العقلانية طابعاً علمياً. في هذا المقال، سنستعرض العقلانية من منظورها الفلسفي وتأثيراتها في العلوم، بدءاً من نظرية المعرفة مع آلان، مروراً بالجوانب السياسية والأخلاقية مع سبينوزا وكانط، ونختتم بأسس المعرفة العلمية التي تضفي عليها العقلانية الطابع العلمي.

كلمات مفتاحية: المنهج، الحقيقة، العلم، العقلانية، الفلسفة

Abstract: After the commitment of various sciences to the application of scientific methodologies, their accuracy and certainty increased, especially after these methodologies were influenced by Cartesian mathematical rationalism. This does not negate the efforts of earlier rationalists, but rather indicates that Descartes added a scientific character to rationalism. In this article, we will present rationalism on its philosophical level and its extent in science, starting with the theory of knowledge with Alain, moving to the political and ethical aspects with Spinoza and Kant, and finally addressing the foundations of scientific knowledge that impart scientific rationality.

Keywords: Method, truth, science, rationality, philosophy

المؤلف المرسل: أ.د. بلعسل محمد، الاميل:mohammed.belasal@univ-msila.dz

1. مقدمة:

تطور العقل البشري ليبتعد عن التفكير الفوضوي ويتجه نحو التفكير المنظم لفهم الظواهر الطبيعية واكتشاف حقيقتها. هذا التطور توّج بميلاد المناهج العلمية، التي أصبحت أداة أساسية لتحصيل المعرفة العلمية والوصول إلى حقيقة الظواهر. تتجلى أهمية المنهج العلمي بوضوح مع الفلسفة العلمية الديكارتية، التي سعت إلى صياغة حقيقة الظواهر في شكل معادلات رياضية. وفقاً لأصحاب هذه الفلسفة، تستند هذه الصياغة إلى ثبات وانتظام الظواهر، مما يسمح بتحصيل القانون العلمي الذي يعكس حقيقتها ويعتبر ثمرة المنهج العلمي.

لاحظنا أن العقل العلمي والفلسفي على حد سواء يؤمنان بالحتمية كخاصية ثابتة في الظواهر، ويعتبران المنهج وسيلة للوصول إلى هذه الحتمية، حيث يمثل القانون العلمي نتيجة المنهج وانعكاساً للحقيقة. أصبح التوحيد في النتائج خاصية مميزة للعلم وهدفاً للعلماء. من هنا، بدأت تظهر مشكلة المنهج في العلوم الإنسانية، لأن الظواهر الإنسانية غالباً ما تفتقر إلى الحتمية، مما يجعل من الصعب أو المستحيل تطوير منهج يمكنه الوصول إلى قانون يعبر عن حقيقة الظاهرة الإنسانية والاجتماعية، ويساعدنا على السيطرة عليها وفهمها بشكل كامل. الحتمية التي تخضع لها الظواهر الإنسانية تختلف تماماً عن تلك التي تخضع لها الظواهر الطبيعية، وهذا يدعونا للاعتقاد بأن لكل من الظواهر الإنسانية والطبيعية عقلانيتها المميزة. بناءً على ذلك، نسعى إلى فهم معالم العقلانية بنوعيها الفلسفية والعلمية لتوضيح التمايز بين الظواهر الإنسانية والطبيعية، ونستعرض الأسس التي قامت عليها مشكلة المنهج والحقيقة في علوم الإنسان من خلال العناصر التالية:

1. العقلانية الفلسفية

بعد التزام العلوم المختلفة بتطبيق المناهج العلمية، ازدادت دقتها ويقينها، خصوصاً بعد تأثر هذه المناهج بالعقلانية الرياضية الديكارتية. هذا لا يعني إنكار جهود العقلانيين السابقين، بل إن ديكارت أضفى على العقلانية طابعاً علمياً. في هذا الجزء، سنستعرض العقلانية على مستواها الفلسفي، بدءاً من نظرية المعرفة مع آلان، وصولاً إلى الجانبين السياسي والأخلاقي مع سبينوزا وكانط.

1.1.مفهوم العقلانية

يطلق لفظ العقلانية على كل نزعة فلسفية تمجد العقل، وتعتبره المصدر الأول للمعرفة والوسيلة الأساسية والوحيدة التي بواسطتها نبرهن ونستدل والعقل هو الميزان الأمثل لتحديد الخير والصواب، وتسقط العقلانية على عدة مجالات كاللاهوت، ونظرية المعرفة والأخلاق، ويقابل مفهوم العقلانية مفهوم اللاعقلانية، هذه الأخيرة تأخذ بمصادر أخرى للمعرفة كالسحر والخرافة والتجربة الحسية ، والعقلانية نزعة تتعامل مع الآليات العقلية وأسسها كالبداهة والبرهنة والاستدلال ، وجاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن العقلانية مذهب فكري يقول بأولية العقل وأن جميع المعارف تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية الموجودة فيه والتي ليست من الحس أو التجربة (صليبا، 1994، صفحة 90).

وعلى هذا الأساس فإن العقلانية ترفض أي بديل للعقل في المعرفة فالتجربة والحواس وغيرها تقودنا إلى معارف متغيّرة وخاطئة، والعقل أكمل منها جميعا، لأن الحقائق التي يصل إليها ثابتة في الزمان والمكان، وإدراك الحقائق ما هو إلا لمعة من لمعات الذهن، والعقل هو الذي يمنحنا سلطة تقنين الطبيعة لنكون أسيادا عليها .

والعقلانية على هذا النحو تدل على قدرة الإنسان على المحاكمة الواعية بعيدا عن سيطرة المشاعر، والعواطف والانفعالات والعصبيات والايديولوجيات، وعلى الاختيار الصائب، وتبرير الأفكار وترشيدها والبرهنة عليها، وبهذا تقودنا العقلانية إلى الاحتكام إلى المنطق العقلي في قبول استدلالات الآخرين أو رفضها، وعن طريق العقل نلتمس الصحة في أفكارنا وفي أفكار غيرنا " وبذلك تغدو العقلانية المؤطر لذلك النشاط الفكري أو الثقافي الذي يتمحور حول النظر إلى الأشياء والحكم عليها من المطابقة أو عدم المطابقة مع المقاييس والمسوغات العقلية حيث تغدو العناية بهذه المطابقة بمثابة ميل ونزوع أو اتجاه أو منهج تفكير مميز في النظر إلى الوجود " (خطاب، 2002، الصفحات 12-13).

2.1. مسلمات العقلانية

إذا كانت العقلانية نزعة فلسفية تؤمن بقدرة العقل على بلوغ الصواب فإن لها مسلمات لا يمكن أن تحيد عنها، تتمثل هذه المسلمات في:

- .الأصل الأول للعلم الإنساني مصدره العقل وليس التجربة.
- .العقل قوة فطرية لدى جميع الناس، ويحمل أفكار قبلية ومعرفة ثابتة، أما الحواس فإنها تهتّم بعالم الأشياء، وهذا العالم لا يثبت على حال، لذا كانت المعرفة الحسية زائفة وغير موثوقة.

- . الحقائق التي يبلغها العقل، حقائق كلية وصادقة صدقا ضروريا ولا يأتيها الشك، ومنها يؤسس العقل معرفته اليقينية التي تصدق في كل زمان ومكان.
- .الحقائق أو المبادئ العقلية الكلية لا تسقط على المعارف المجردة بل تتعداها إلى الأخلاق والسياسة وغيرها (ريشنباخ، د ت، صفحة 101). وهذا يدل على أن العقلانية . في نظر ممثليها . صالحة أيضا لدراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية.

أ- **اختبار المسلمات:** يقدم العقلانيون مجموعة من النقاط يؤكدون بها صحة وصدق مسلماتهم العقلية منها :

- أن توافق الوحي والعقل كان حجة للعقلانيين للقول بأن المبادئ الأساسية للدين فطرية أو بديهية، ومن هنا يبقى العقل أصدق محك للوحي وخير مقياس للحقائق .
- نتائج العلم عبارة عن أحكام ضرورية كلية، ذلك أن العلم لا يقتصر على ملاحظة الظواهر بل يتعداها إلى تأسيس قوانين تتحكم في هذه الظواهر فمعرفة حقيقة الشيء أو الظاهرة يسمى قانونا، وهذه المعرفة

لا يمكن أن يمنحها إلا من يعتمد على العقل، فالعقل قادر على كشف خفايا الظاهرة، ويعتقد العقليون وعلى رأسهم ديكارت بأن العقل الرياضي هو الذي يتولى هذه المهمة، وعقلنة الظاهرة أو ما يسمى بالقانون لا يمكننا فقط من فهم حاضر الظاهرة بل كذلك يقودنا إلى فهم مثيلاتها حاضرا ومستقبلا، وهنا يكمن انتصار العقل البشري على الظاهرة، وما العقلانية العلمية في النهاية إلا قانون يعمم على الظواهر التي تشترك في نفس الخصائص، والغاية القصوى من كل هذا السيطرة على الطبيعة (يعقوبي)4.

2. **العقلانية الفلسفية**

تهتّم العقلانية الفلسفية بنظرية المعرفة، على اعتبار أن نظرية المعرفة هي النسق الذي تلتزم به الذات العارفة في بحثها عن الحقيقة والخروج عن النسق السليم في البحث عن الحقيقة يؤدي إلى نتيجة ضرورية هي تجاوز الحقيقة، ويعتبر ديكارت من بين الفلاسفة الذين وضعوا المعرفة في ثوبها العقلي، معتبرا بذلك العقل المرجع الأساسي والمؤطر الوحيد لمعارفنا، وسنبيّن فيما هو آت أدلة ديكارت وأتباعه في الدفاع عن اعتقادهم .

1.2.**العقل كأساس للمعرفة**

الإنسان يحب أن يعرف بالطبع ، غير أنه لا يجب أن نعتقد بأن المعرفة تتوقف عند حب الاطلاع وإشباع الفضول الذي نشاهده عند أغلب الحيوانات الراقية، بل المعرفة التي نقصدها هي المعرفة الحاصلة بالعقل، والتي ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات، فالمعرفة عند الفلاسفة

تتعدى حب الاطلاع والنفع والارتباط بالحياة اليومية إلى البحث عن منبع الأشياء وعللها، والعقل لا ينفعل بالمعرفة بل يؤسسها، وإن كانت نظرية المعرفة مشكلة حقيقية في الفلسفة، فالثابت أن العقل لا يغيب في تحصيل المعرفة واختلاف الفلاسفة لم يكن في حضور العقل لتأسيس المعرفة، و إنما في الآليات التي توجهه وتبعث حيويته وتركيزه ، غير أن العقلانيين يعتبرون العقل مصدر المعرفة، وإن اعتبرنا ميلاد المذهب العقلي مع ديكارت ، فإن تمجيد العقل يعود إلى الفلسفة اليونانيـة القديمـة مع كل من أفلاطون وأرسطو، وصولا إلى الفلسفة الحديثة مع ديكارت والمعاصرة مع آلان ، و إن كانت العقلانية ممتدة في الفلسفات القديمة إلا أنها كانت أكثر نضجا مع ديكارت وأتباعه أمثال ليبنتز وآلان.

وانطلق ديكارت في نظريته المعرفة من تقسيمه للأفكار، إذ يجزم هذا الأخير أن الأفكار تنقسم إلى ثلاث أنواع ؛ أفكار حسية وأفكار خيالية وأفكار فطرية ، وهذه الأفكار ليست على نفس المستوى من اليقين والوضوح فالأفكار الحسية مستمدة من العالم الخارجي عن طريق اتصال الحواس بالموجودات الطبيعية ، ومن أمثلتها الأحكام الذوقية التي يصدرها الإنسان على الطعام والألوان والأشكال ، وهذه الأفكار لا قيمة لها، لأنها أفكار متغيّرة من شخص إلى شخص، ولا يمكن أن نعتمد عليها في تأسيس معرفة فلسفية أو علمية ، أما الأفكار الخيالية فهي من صنع المخيّلة يقول ديكارت عن هذه الأفكار" وبعضها غريب عني و مستمد من الخارج والبعض الآخر وليد صنعي و اختراعي " (يعقوبي، خلاصة الميتافيزيقا، 2002، الصفحات 123-124).

إن المخيّلة ترحل بعيدا عن الواقع، لأنها تعجز عن فهمه أو مواجهته ويعطينا ديكارت مثالا عن هذه الأفكار والمتمثل في فكرتنا عن الحصان المجنح وهذه الأفكار تفتقد إلى اليقين أيضا. إن الأفكار اليقينية تتمثل في الأفكار الفطرية، لأنها تخلو من الخيال و لا تخضع للملاحظة الحسية والتجربة في تأسيسها.حتى و إن كان الاختبار الحسي يدل على صحتها.و تتميّز الأفكار الفطرية بالوضوح المطلق، لذا تخرج هذه الأفكار من دائرة الشك إلى دائرة اليقين، ويؤكد ديكارت على أن الأفكار الفطرية بالإضافة إلى أنها تتميز بالوضوح فإن مصدرها العقل، وهي موجودة فيه بالقوة، يقول ديكارت "إن هذه الأفكار يبدوا بعضها مفطورا في" (يعقوبي، خلاصة الميتافيزيقا، 2002، الصفحات 123-124)

والنموذج الحقيقي للأفكار الفطرية في الاعتقاد الديكارتي هي المفاهيم الرياضية. غير أن برهنة آلان (Alain) (*)على فاعلية العقل في المعرفة كانت أكثر عقلانية ووضوحا إذ يبيّن آلان أن التجربة وحدها عاجزة عن تأسيس قانون علمي أو بناء أحكام صائبة، والقانون العلمي مدرك عقلي وليس معطى حسي تجريبي حتى و إن ساهمت التجربة في تأسيسه ، فالعلم عبارة عن أحكام ضرورية كلية، ذلك أن العلم لا يقتصر على ملاحظة الوقائع، بل يعمل على استنباط القوانين الكامنة في هذه

الوقائع، وأحكامنا الحسية دائما تكون بحاجة إلى تقييم وتقويم عقليين، فنحن لا نرى الأفق بعيدا بل نصدر حكما على بعده حسب لونه وأبعاده النسبية بالنسبة للأشياء الأخرى، والرسام مثلا أثناء محاكاته للمظاهر الطبيعية لا شك وأنه يعطي تقديرات عقلية للأبعاد والأشكال التي يرسمها، ونحن إن لم نستخدم عقلنا في فهم لوحة الرسام لا شك أننا سنخدع أيضا بمظاهر هذه اللوحة، فهي تبدو للحس على أنها ذات عمق ، لكن العقل يصوب هذا الحكم ليمد إدراكنا بأن هذه المشاهد دون عمق. (Alain, 1941, p. 22)

وبناء على هذا يعتبر آلان أن الواقع قد لا يحمل في طياته الحقيقة، لأن هذه الحقيقة من تأسيس العقل، ويعطي آلان مجموعة من الأدلة ليثبت بها أن كل إنسان مهما كانت بساطته يلجأ في غالب الأحيان إلى العقل في بحثه عن الصواب، منها أن الإنسان إذا أراد أن يقطف ثمرة أو يتفادى ضربة حجر فإنه يقوم بحسابات عقلية قبل أن يستجيب جسمه لتحقيق الهدف، فالإدراك الحقيقي والصحيح يعني خيال وعمل عقلي مسبق للحركة التي سيقوم بها الجسم قبل الوصول إلى هذه الأغراض (Alain, 1941, p. 52)

إن المعارف الحسية التي نحصّلها أو التجارب التي نقوم بها تستند دائما إلى تحليلات العقل ـ حسب آلان ـ غير أن ما يميز نظرية المعرفة عند آلان عن ديكارت هو أن آلان لا يلغي كليا دور الحواس، وإنما يجعل عملها تحت لواء العقل، ولا ينهي دورها بل يجعله ثانويا.

2.2.العقلانية الديكارتية في إثبات وجود الله

استطاع ديكارت أن يوظف عقلانيته في أشد القضايا الميتافيزيقية تعقيدا فأثبت بها وجود الله منطلقا من شعور الإنسان بالنقص باحثا بذلك عن الكمال، وهذا شعور فطري غريزي يعرف بالحدس ، إذ يمكننا هذا الحدس من إدراك فكرة ما دفعة واحدة ومن غير مقدمات تجريبية، لأن هذا الإدراك من الأفكار الفطرية الواضحة، بحيث يمتنع معها كل شك، ولا يقوم هذا الحدس على شهادة الحس ولا على الخيال الوهمي، ومن بين الأفكار التي يحسها الإنسان مباشرة، الزمان، اللامتناهي الكمال، ففكرة الكمال ليست مستقاة من عمل حسي وإنما مستقاة من شعور باطني يراود النفس بحاجتها إلى الله نتيجة شعورها بالنقص، واعتقاد الإنسان بأنه كائن غير كامل وناقص يعني وجود خالق كامل، وبيّن ديكارت أن فكرة اللامتناهي سابقة عن فكرة المتناهي، بمعنى أن إدراك النفس لله يكون قبل إدراكها لنفسها، ودليل ذلك أن النفس تشك وترغب بالكمال، وهذا يعني أن الكمال الإلهي تسرب إليها فأدركت نقصها، مما جعلها تبحث عن تقليد الكمال الإلهي 9 .(الحاج ك.، د ت، صفحة 130)

إن الله لا يحتاج في وجوده – على حد تعبير ديكارت – إلى شيء آخر ولا في بقائه أيضا، لأن صفة الكمال تقتضي استغناء الله عن المخلوقات، لكن باقي الكائنات تحتاج في وجودها واستمراريتها إلى الكامل وهو الله، ولو أردنا التعبير عن هذه لفكرة رياضيا لن نجد غير الواحد الكامل في الأعداد، فالواحد في الأعداد لا يحتاج في وجوده إلى أي عدد آخر، لكن باقي الأعداد تحتاج في وجودها إليه، فالاثنان مثلا ما هي إلا واحد مضاف إليه واحد، والثلاثة ما هي إلا اثنان مضاف إليها واحد وهكذا.

وهنا يظهر تأثر ديكارت بالمنهج العقلاني الرياضي في إثبات الكمال الإلهي، وهذا التأثر يظهر في قول ديكارت " ويترتب على ذلك أن وجود الله لا يقل يقينا عن أي برهان من براهين الهندسة " . (صيبا، 1991، صفحة 48)

إن برهنة ديكارت على وجود الله باستخدام العقل جعلته يمتلك أرضية صلبة، لتأسيس نظرية المعرفة ، ذلك أن الإنسان غير الكامل يخطئ ، والكائن الكامل لا يخطئ ولا يخدع، لأن هذا يرمي به في دائرة النقص، وهذا الوصف لا يليق بالله الكامل، فإذا كان الله موجود فأنا بالأفكار الفطرية أتطلع إلى كماله، والخطأ الصادر مني عندئذ ليس لخطأ أنطولوجي وجودي وإنما يأتي فقط لقصور ملكاتي، وما دمنا نعترف بالكمال كان لزاما علينا أن نعترف بلا كمالنا، فاللاكمال الذاتي – أي لا كمال الإنسان – يوجب الكمال الموضوعي الأنطولوجي ويفترض وجود الله ، وهذا يحتّم علينا إدخال الله في نظرية المعرفة، وهذه المعرفة هي معرفة نظام وقوانين الطبيعة التي تدل على الكمال الإلهي ، وما نعرفه في النهاية هو حقائق خالدة أسستها الإرادة الإلهية الثابتة والمطلقة يقول ديكارت" و لا فيها شيء على العموم لم تكن معرفته بالنسبة إلى نفوسنا طبيعية إلى درجة لا يستطاع معها تكلف الجهل به، ثم إني بينت فوق ذلك ما هي قوانين الطبيعة، ومن دون أن أسند حججي إلى أي مبدأ آخر غير كمالات الله اللامتناهية " 11. (صيبا، 1991، صفحة 59)

إن تتبعنا لحركة ديكارت في إثبات وجود الله يجعلنا نكتشف أنه اعتمد على قاعدة البداهة والوضوح، فجعل فكرة الكمال الإلهي حقيقة واضحة وجلية لدينا، ومن جهة ثانية يعترف ديكارت أن فكرة الكمال الإلهي فكرة فطرية في الإنسان، وهكذا التزم ديكارت بمنهجه العقلاني في إثبات وجود الله، ويعتقد ديكارت أن بلوغ حقيقة الله هو اقصى ما نسعى إليه، وبالعقل وصلنا إلى ذلك، وإن كان العقل قادرا على بلوغ هذه الحقيقة الميتافيزيقية المطلقة فما دونه ممكن خاصة ما تعلق بحقيقة الظواهر .

3.2. العقلانية السياسية

تظهر العقلانية في مستواها السياسي في الفلسفة الحديثة مع المفكر الهولندي سبنوزا الذي تأثر تأثرا واضحا بديكارت، ويعتقد سبنوزا أن العقل مصدر المعرفة وأن الوضوح هو أساس

الحقيقة ، والأشياء الواضحة فوق كل شيء، وهي تعرف بنفسها ولا يتطرق إليها الشك، ولا يمكن أن تصاب في لحظة ما بالتغيّر ، والعقل يستنبط النتائج الصادقة في كل زمان ومكان، وخير مثال على هذه النتائج، نتائج الرياضيات إذ اعتبرها سبنوزا المثل الأعلى لليقين والوضوح، ويجب أن يسود هذا المثل كل فروع المعرفة البشرية، والإيمان بالعقل دفع بسبنوزا إلى تأسيس بناء شامخ من الهندسة وهذا ما حمله على اعتبار الكون نظام رياضي12. (ديورنت، د ت ، صفحة 317)

وانطلاقا من هذا التصور اعتقد سبنوزا أن النموذج العقلي الرياضي ليس حكرا على العلوم العقلية دون غيرها، بل إن هذا النموذج العقلاني صالح لدراسة السلوك البشري بما فيها الأخلاق والسياسة، ومن هنا بدأت ملامح العقلانية تظهر في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية وفي مقدمتها علم السياسة، إذ أن بوادر نضج هذا العلم وتحرره من الفلسفة بدأ يظهر مع سبنوزا يقول هذا الأخير" وأفضل طريق لذلك هو البحث عن الأفضل لتكوين مجتمع إنساني دون أدنى تعارض مع الحق الطبيعي ". (سبنوزا، 1971، صفحة 382)

يريد سبنوزا أن يؤسس نظام يضمن الحقوق ويوجه السلوك الاجتماعي، ويقيم دولة عادلة كل ذلك اعتمادا على العقل، وبهذا يكون سبنوزا قد فتح المجال لدراسة السلوك البشري بالاعتماد على العقلانية الديكارتية بعيدا عن الاحتكام إلى الأهواء، و يعتقد سبنوزا بأن خضوع حياة الناس لقيادة العقل وحده تجعل طباعهم تتوافق بالضرورة وبصفة دائمة .(بليمان، 2007، صفحة 64)

إن فلسفة سبنوزا على هذا النحو أرادت أن تنتهج الاستدلال الرياضي والوضوح الديكارتي في البحث عن العلاقات الضرورية التي تحكم سلوك البشر، وبعبارة أوضح فإن سبنوزا أراد للعقلانية الديكارتية أن تكون المنهج الملائم لفهم حقيقة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، فالسلوك البشري عبارة عن حقل رياضي يجمع بين اجتهاد العقول وتفكير الأفراد، وهكذا انتقلت العقلانية من طابعها النظري إلى طابعها التشريعي الواقعي في محاولة لبلوغ الحقيقة في ميدانها الأصلي .

5.3.العقلانية الكانطية في تأسيس الواجب الأخلاقي

ظهرت العقلانية في ثوبها الأخلاقي مع كانط الذي استمد بعض معالم العقلانية من ديكارت، غير أنه أضفى عليها بعض الجوانب من الفلسفة التجريبية، ومن بين الأحكام الجديدة التي ظهرت مع العقلانية الكانطية نذكر ما يلي:

- العلية مفهوم تركيبي يخضع للتجربة لكنه يتأسس على قانون قبلي .
- للحواس حدود لا يمكن لها أن تتجاوزها أو أن تدرك بعدها، وللعقل القدرة على تحليل المفاهيم وتجزئتها للتعرف على محتواها، ولكنه لا يستطيع أن يمنح لهذه المفاهيم

موضوعاتها إلا بالاستناد إلى التجربة، فقد نحدد مفهوم العلوم الإنسانية مثلا من وجهة نظر عقلية، لكن موضوع هذه العلوم ولا ريب مستمد من الواقع التجريبي.

ومن هنا يتأكد لدى كانط أن هناك مفاهيم قبلية كامنة في العقل تثيرها التجربة ليحللها العقل، وبعد ذلك يصدر أحكامه النهائية15 . (زيتوني، 2006، صفحة 149)

وبهذا تكون العقلانية الكانطية قد عبرت عن عدم رضاها بتعميم الرياضيات بشكل مطلق واعتبارها مثلا أعلى وجب أن تلتزم به العلوم الأخرى، كما عبرت العقلانية النقدية عن رفضها للتجربة كمصدر وحيد لبلوغ الحقيقة، وميّز كانط بين الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية، فالأحكام التركيبية تحمل الجديد، وموضوعها يضيف إلى محمولها شيئا جديدا، والمحمول ليس صفة ملزمة للموضوع وليس محتوى فيه، فنحن ننطلق في الحكم التركيبي من التصور كمعطى عقلي ثم نؤسس على هذا المعطى معرفة جديدة تختلف تماما عن هذا التصور، وبيّن كانط أن كل العلوم تعتمد على هذا النوع من الأحكام بما في ذلك الرياضيات والفيزياء يقول كانط "كل الأحكام الرياضية تركيبية، وهذه أطروحة تبدو إلى حد الآن مجهولة في أبحاث الذين درسوا العقل الإنساني " (Kant, 1968, p. 44).

أما الأحكام التحليلية في نظر كانط فهي أحكام فطرية لا شأن للتجربة بها، ذلك أنها كامنة في العقل، والعقل في حد ذاته قوة فطرية، وبإمكان الإنسان أن ينمي قدرات العقل، لكنه من المستحيل أن يكتسبه، ولا يمكن للعقل أن يدرك وجوده إلا من خلال الوظائف التي يؤديها والمتمثلة في النظر والتفكير والتأمل، والأحكام التحليلية تساهم في بناء الأحكام التركيبية، وأهم ما يميّز الفكر الكانطي أنه وظف عقلانيته في تأسيس الواجب الأخلاقي، فبين كانط أن الأخلاق سلوك واقعي عملي، لكنها رغم ذلك مبادئ أولية قائمة في العقل، لذلك كان العقل هو المؤسس الفعلي للأخلاق، لكن التجربة هي التي تترجمه، فيتحول بذلك العقل إلى ضمير يوجه صاحبه على أرض الواقع وحتى يكون الواجب الأخلاقي ثابت يجب أن ينزه الواجب عن كل غاية لذلك كانت نية الفعل أساسا للواجب الأخلاقي يقول كانط " يجب أن يوافق الناس قاطبة على أنه كي يكون لدينا قيمة أخلاقية ، أعني لكي نرسي دعائم الإلزام ينبغي أن يتضمن القانون في ذاته ضرورة مطلقة ويجب ألا تقتصر مشروعيته الأمر التالي: " لا يجب أن نكذب " على بعض الناس بحيث لا تعبأ سائر الكائنات العاقلة به (كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، 1991، صفحة 213) " .

انطلاقا من هذا يتبيّن أن كانط يريد للواجب أن يكون غاية سامية تتبناها كل العقول، والواجب الأخلاقي إلزام نفرضه على أنفسنا، و هو في النهاية يعبر عن دلالة أساسية مفادها أننا نؤدي الواجب لأننا نريد من أعماق أنفسنا، ويجب أن تكون للأخلاق قاعدة عامة وثابتة تؤمن بها النفوس

وتلتزم بها التزام العلوم بالقانون العلمي، وهذا الأمر كان بمثابة إرهاص لقيام القانون الأخلاقي، وتمهيدا لتأسيس دولة كونية تنصهر فيها كل الأخلاقيات داخل قانون واحد، وبما أن العقلانية وظفت في قضايا ميتافيزيقية كوجود الله أو القانون الأخلاقي فلا شك أن فعاليتها في القضايا العلمية سيكون أجدى وأنجع.

3. العقلانية العلمية :

1.3.أسس المعرفة العلمية

تبنى ديكارت الشك كمنهج لبلوغ الحقيقة، وأكّد ديكارت على أن المنهج الشكي هو المنطق الصالح لتأسيس فلسفة علمية، ويقودنا هذا المنهج إلى نزع الثقة من كل معرفة تمنح إلينا، وعلينا تبيّنها والتأكد من صحتها أو فسادها يقول ديكارت عن ممارسته لهذا المنهج " وفي السنوات التسع التالية كلها لم أصنع شيء إلا الطواف هنا وهناك في العالم ...وإنما كنت أخص تفكيري في كل شيء يمكن أن يكون موضعا للشك ويكون سببا في خطئنا (ديكارت، مقالة الطريقة، صفحة 37)".

يعتبر ديكارت التفكير أساسا للشك، ولا يتحدد وجود الإنسان، ولا يمكن له تحصيل الحقيقة إلا بممارسته للتفكير، وأسقط منهجه الشكي على المعرفة الحسية وعلى آراء السابقين، وعلى كل الأفكار القبلية، ليحكم على فلسفة غيره، ويؤسس في النهاية نظرية معرفة خاصة به، ولخص ديكارت منهجه الشكي في قوله" ونظرا إلى أني رأيت أن من يريد أن يشك في كل شيء لا يستطيع مع ذلك أن يشك في وجوده حين يشك، ولو كان يشك في كل ما سواه " .(ديكارت، مبادئ الفلسفة، صفحة 60)

إن الشك على هذا النحو قاصر، ويجب أن يتعدى إلى كل شيء إلا إلى الشك في حد ذاته، وهكذا يكون ديكارت قد وضع القطيعة مع الفلسفات الأرسطية القديمة، وغلب بذلك الوجود الفكري على الوجود المادي، وحتى يمارس العقل المنهج الشكي لابد أن يلتزم بمجموعة من القواعد تتمثل في قاعدة الوضوح وقاعدة التحليل وقاعدة التركيب وقاعدة الإحصاء، وتجدر الإشارة هنا إلى أن قاعدة البداهة عند ديكارت تضع سلطة العقل فوق أي سلطة أخرى، وتذعن معرفة الحواس وتضعها موضع الشك، كما أن هذه القاعدة تضع المعارف المعطاة إلينا محلا للانتقاد والشك، ومن خلال قاعدة البداهة يدعونا ديكارت إلى عدم التسرع والتعجّل أثناء إصدار الأحكام ، ويجب أن يسبق وضوح الفكرة الحكم عليها، أما قاعدة التحليل فتعتبر إسقاط للمنهج الرياضي على كل المسائل المدروسة مهما كان نوعها، لأن التحليل نوع من أنواع البرهان الرياضي .

إن قاعدة التركيب تعتبر تأكيدا لعملية التحليل، لأن التركيب استلزام عكسي لعملية التحليل، كما أن التركيب يساعد على الفهم، وتعتبر هذه القاعدة الفرق الجوهري بين المنهج الأرسطي والديكارتي، لأن المنهج الديكارتي هنا يولد حقائق جديدة من حقائق معلومة، لكن القياس الأرسطي

لا يوّلد أي حقائق، بل إن أهم ما يميّز هذا القياس هو أن النتيجة فيه تنزع الغلاف عن المقدمات لا أكثر على حد تعبير ديكارت، ويلح ديكارت على ضرورة قاعدة التركيب التي تعتبر ترتيب للأفكار بداية من أبسط الأشياء وأيسرها معرفة ثم التدرج شيئا فشيئا حتى نصل إلى معرفة ما هو أعقد (ديكارت، مقالة الطريقة، صفحة 21) ، إن عملية التركيب تكمل نسق فهمنا للمشكلة التي نرغب في حلها، والظاهرة التي نود دراستها، وتعتبر قاعدة الإحصاء بمثابة الخطوة النهائية لبلوغ الحقيقة، وهذه القاعدة هي تأكيد واختبار لصحة القواعد السابقة، ويختلف الاستقراء الديكارتي عن الاستقراء الأرسطي في أن الغرض من الاستقراء الديكارتي ليس الوصول إلى نتيجة كلية انطلاقا من تتبع الجزئيات، وإنما غايته الوصول إلى حدود تتصل بذاتها و ببعضها البعض (كرم، صفحة 65) .

إن احترام العقل لقواعد المنهج في نظر ديكارت يقودنا إلى بلوغ الحقيقة في العلوم. فهل يمكن أن يؤدي هذا المنهج غايته في فهمنا للظواهر الإنسانية والاجتماعية؟

إننا نسعى إلى تناول العقلانية من حيث هي منهج علمي، وقد بلغت هذه العقلانية أوجها مع ديكارت، إذ اعتبر هذا الأخير الرياضيات مصدر اليقين ، لأن المبادئ الرياضية فطرية عقلية لا يشوبها الشك، ويعتقد ديكارت بأن الحساب الهندسة أوثق من العلوم الأخرى، لأنهما منزهتان عن الواقع، وتعتبر الرياضيات أبسط العلوم وأوضحها وأرقاها استدلالا، لأن العقلانية الرياضية تستمد يقينها من الاستنتاجات البينة الواضحة، ويصر ديكارت على أن يجعل من القانون الرياضي محصلة لكل علم من العلوم، ويرد كل معرفة يقينية إلى الصور القبلية والبديهيات الرياضية يقول ديكارت" كنت معجبا بالرياضيات وخصوصا لما في حججها من يقين و بداهة، ولكني لم أكن مدركا بعد فائدتها الحقيقية، ولما رأيت أنها لا تنفع إلا في الصناعات الميكانيكية عجبت لأمرها كيف تكون أسسها ثابتة ومتينة إلى هذا الحد ولا يشاد عليها بناء أسمى من هذا البناء "22 (ديكارت). يريد ديكارت للرياضيات أن تغزو العلوم الأخرى، جاعلا منها المثل الأعلى الذي يجب أن يتطلع إليه كل عالم مهما كان موضوع العلم الذي يدرسه، وينبغي أن نشير هنا إلى أن كل العقلانيات الأخرى كالعقلانية التجريبية أو العقلانية الوضعية تلتقي مع العقلانية الديكارتية الرياضية في هذه النقطة، وهي وجوب تحصيل قانون عام يعبر عن آليات الظاهرة المدروسة، وهنا تظهر مشكلة المناهج في العلوم الإنسانية والاجتماعية ومدى قدرة هذه المناهج في تلبية رغبة هذه العقلانيات وتحصيلها للقانون، وخصائص العلم بصفة عامة، وإن اختلفت العقلانية التجريبية عن العقلانية الديكارتية أو العقلانية الوضعية فإنهم يشتركون في خصائص العلم وأهدافه ، وهذا ما سنبيّنه فيما يلي:

2.3.خصائص المعرفة العلمية

لم يستسلم الإنسان كغيره من الكائنات إلى العالم الطبيعي، بل حاول أن يفهم هذا العالم و يفسّره ويحلّل ظواهره ووقائعه، فانتهى به الأمر إلى إقامة أنساق نظرية تحتوي على منظومة من القوانين تسير هذا العالم، وتساعد الإنسان على التنبؤ وتمنحه الفرصة ليتحكم في الظواهر الطبيعية، و لم يتوصل الإنسان إلى هذه الغاية إلا من خلال البحث العلمي المتواصل والخروج من دائرة محاكاة الطبيعة وتقليدها والانسياق لها، وكان العلم بذلك غاية ترفع من شأن الإنسان وتجعله سيّدا على الطبيعة لا عبدا لها، وذلك بتحليل وتفسير ما يحدث حوله من ظواهر.

وكلمة علم تعني " مستوى معين من المعرفة وعلاقة محددة لعناصر المعرفة أي مجموع المعارف المنضبطة المترابطة، المنظمة التي جناها الإنسان خلال تاريخه الطويل". (الحاج ك.، 2000، صفحة 845)

ويعتقد الكثير من فلاسفة العلم ـ خاصة في العصر الحديث ـ بأن موضوع العلم يجب أن يكون مجموعة الظواهر التي تقود جميع الدارسين إلى بلوغ نفس النتيجة والاتفاق بشأنها، فالعلم يدرس علاقة معلومة بين أحدث معلومة " ومحتوى العلم في شكله الناضج ليس إلاّ مجموعة من القضايا التي تأكدت صحتها، وهي مرتبطة بحيث يبدو النسق في ضوء قواعد معينة (منطقية) متسقا مع ذاته ومتفقا مع الملاحظة التجريبية " . (أنور، 1988، صفحة 13)

فالعلم هو اكتشاف وتفسير للعلاقات التي تربط الظواهر بعضها ببعض وهو في النهاية استجابة لرغبة الإنسان في المعرفة والفهم .والمعرفة العلمية ليست معرفة تلقائية عشوائية، بل هي معرفة منهجية وهادفة لها شروط لا يمكن تجاوزها لفهم حقيقة الوقائع، ومن المعروف لدى فلاسفة العلوم أن العلم يتميّز بموضوع محدد وخاص ومنهج مضبوط ليصل في النهاية إلى قوانين تحكم الظواهر، ويختلف الفلاسفة في صياغة هذه الشروط والتعبير عنها رغم أنها واحدة، والمهم أن علماء المناهج لا يعترفون بعلم من العلوم إلاّ إذا استوفى الشروط التالية:

. أن يقوم على أساس مادي: بمعنى يكون موضوعه ماديا ملموسا نستطيع التجريب عليه أو أن يكون له أثر مادي

. يجب أن يستخدم المنهج العلمي وفق خطواته الثلاث: الملاحظة، الفرضية، التجربة ووصولا إلى القانون.

إن بلوغ القانون في النهاية هو الشرط العام للعلم، لأن القانون يساعدنا على التنبؤ الصادق والتحكّم والسيطرة على الظواهر25. (قاسم، 1999، صفحة 23) ، يظهر للوهلة الأولى أن هذه الشروط بسيطة، لكنها في الحقيقة غاية في التعقيد، خاصة إذا تعلق الأمر بالظواهر الإنسانية والاجتماعية.

من خلال ما سبق، يمكن القول أن المعرفة العلمية هي واحدة من أهم الإنجازات التي حققتها البشرية، وتميزت بخصائص فريدة جعلتها أداة فعالة لفهم وتفسير العالم من حولنا. هذه الخصائص تضمن دقتها وموثوقيتها، وتجعلها تختلف عن أنواع المعرفة الأخرى.

. تتميز المعرفة العلمية بكونها تراكمية .هذا يعني أن المعرفة تبنى على مر العصور، حيث تضاف الاكتشافات الجديدة إلى الرصيد المعرفي السابق، مما يؤدي إلى تطور مستمر في فهم الظواهر. فعلى سبيل المثال، الاكتشافات في علم الفيزياء الحديثة بنيت على الأسس التي وضعها العلماء الأوائل مثل نيوتن وأينشتاين.

. المعرفة العلمية تجريبية في طبيعتها. فهي تعتمد على الملاحظة والتجربة كوسيلة رئيسية للتحقق من صحة الفرضيات والنظريات. هذا النهج التجريبي يضمن أن المعرفة العلمية تستند إلى أدلة قوية يمكن اختبارها وإعادة اختبارها من قبل الباحثين.

. تتميز المعرفة العلمية بالموضوعية .تسعى العلوم إلى التخلص من التحيزات الشخصية والذاتية والتركيز على الحقائق والبيانات القابلة للقياس. هذا يسهم في بناء معرفة موثوقة يمكن أن تكون مشتركة بين جميع البشر بغض النظر عن خلفياتهم الثقافية أو الشخصية.

. من الخصائص المهمة للمعرفة العلمية هي القابلية للتحقق .يجب أن تكون النتائج العلمية قابلة للتحقق منها من قبل علماء آخرين من خلال إعادة إجراء التجارب أو الملاحظات. هذا يضمن موثوقية واستمرارية المعرفة العلمية.

. تهدف المعرفة العلمية إلى بناء نظريات تفسيرية تقدم فهماً شاملاً للظواهر الطبيعية. هذه النظريات تكون مبنية على فرضيات مدعومة بأدلة قوية وتقدم تنبؤات يمكن اختبارها.

. تتميز المعرفة العلمية بالدقة والتحديد .السعي نحو الدقة في الوصف والتحديد يسمح بإجراء تجارب متكررة والحصول على نفس النتائج تحت نفس الظروف، مما يعزز موثوقية النتائج العلمية.

. تعتبر المعرفة العلمية منظمة ومنهجية، حيث تعتمد على منهجيات وقواعد محددة تضمن تنظيم البحث وفهم النتائج بشكل منظم ومنهجي. هذه المنهجية تسهل على العلماء والباحثين التعاون والمشاركة في تطوير المعرفة.

وأخيراً، تتميز المعرفة العلمية بالابتكارية والارتباط بالتكنولوجيا والتطبيقات .القدرة على تقديم تفسيرات جديدة وابتكار حلول لمشكلات معقدة يساهم في التطور التكنولوجي والمعرفي، ويجعل العلوم ذات تأثير مباشر على حياة الناس من خلال التطبيقات العملية.

وباختصار فإن خصائص المعرفة العلمية تجعلها أداة قوية وفعالة لفهم العالم وتحسين الحياة من خلال الابتكار والتطبيق العملي. هذه الخصائص تسهم في بناء معرفة موثوقة، دقيقة،

وقابلة للتحقق، مما يعزز من قيمتها وأهميتها في تقدم البشرية. كما أن هذه الخصائص تمثل في جوهرية العقلانية العلمية وتمنحنا فرصة توليد المعرفة العلمية من جديد، ويتضح جليا أن العقلانية العلمية مجالها المادة أو الظواهر المادية بينما العقلانية الفلسفية مجالها الميتافيزيقا وهذا يؤدي ضرورة الى وجود تكامل بينهما، بمعنى أن اجتماع العقلانيتين العلمية والفلسفية يقودنا الى فهم الظواهر المادية والميتافيزيقية وبهذا يكتمل نسق معرفتنا بالظواهر جميعا.

4.خاتمة:

في الختام يتجلى التباين بين العقلانية العلمية والعقلانية الفلسفية في طرقهما وأهدافهما، إلا أنهما يتكاملان بشكل يعزز فهمنا للعالم والوجود. العقلانية العلمية تركز على التجربة والتجريب واختبار الفرضيات للوصول إلى حقائق قابلة للقياس والتكرار. هي نهج موضوعي يسعى لفهم الظواهر الطبيعية من خلال القوانين والنظريات العلمية. بالمقابل، العقلانية الفلسفية تتناول الأسئلة الأعمق حول الوجود والمعرفة والأخلاق والمعنى، مستخدمةً التفكير النقدي والتأمل العقلاني للوصول إلى استنتاجات شاملة حول القضايا التي قد لا تكون قابلة للتجريب أو القياس.

وبينما تركز العقلانية العلمية على اكتشاف حقائق ملموسة وقابلة للتحقق، تسعى العقلانية الفلسفية إلى تقديم فهم أعمق للمفاهيم والظواهر التي تتجاوز حدود العلم. ومن هنا، فإن التكامل بينهما يمكن أن يساهم في تحقيق معرفة شاملة ومتوازنة، تساعد في التقدم البشري من خلال الجمع بين الدقة العلمية والحكمة الفلسفية.

5.قائمة المراجع:

أولا: المراجع باللغة العربية

. الشريف زيتوني. (2006). مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية (الإصدار 01). (محمود يعقوبي، المحرر)، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

. جميل صليبا. (1994، المعجم الفلسفي، ج1، الشركة العالمية للكتاب. بيروت

. سبنوزا. (1971). رسالة في اللاهوت والسياسة. (حسن حنفي، المترجمون) القاهرة، مصر: المطبعة الثقافية.

. عبد القادر بليمان. (2007). الأسس العقلية للسياسة، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر

. علا مصطفى أنور. (1988). التفسير في العلوم الاجتماعية. دار الثقافة للنشر والتوزيع. مصر

. كانط. (1991). تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق. (محمد فتحي الشنيطي، المترجمون) الجزائر: موفم للنشر الجزائر.

. كمال يوسف الحاج. (د ت). ديكارت أبو الفلسفة الحديثة.
. كميل الحاج. (2000). موسوعة المصطلحات الاجتماعية، لبنان: شركة ناشرون. بيروت
. محمد قاسم. (1999). المدخل إلى مناهج البحث العلمي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت
. ديكارت، (1991) تر: جميل صيبا، مقالة الطريقة، موفم للنشر، الجزائر
.ديكارت. (دت). مبادئ الفلسفة.
. ديكارت. (دت). مقالة الطريقة. (عثمان امين، المترجمون)
محمود يعقوبي. (2002). خلاصة الميتافيزيقا (المجلد 01). دار الكتاب الحديث. القاهرة
هانز ريشنباخ، (دت)، نشأة الفلسفة العلمية، تر: فؤاد زكرياء، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. مصر
.يوسف كرم. (دت). تاريخ الفلسفة الحديثة.
. ول ديورنت، (1995). قصة الفلسفة، تر: فتح الله محمد ديورنت. مؤسسة المعارف. مصر

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

.Alain. (1941). Eléments de philosophie , collection idées.: édition Gallimard . france
.Kant. (1968). Critique de la raison pure. (J.Barni trad ،PUF. Paris.